



إعداد / محمد ناصر الماجد

مقدمة

الحمد لله الذي اقسام عز وجل فقال " ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) (سورة القلم) " وأول ما أنزل على عبده صلى الله عليه وسلم " (اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) (سورة العلق) وصلى الله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال : " أول ما خلق الله القلم " أما بعد

فقد استفدت كثيرا من الإعداد لهذا التقرير الموجز عن تاريخ الخط العربي حيث قرأت ما كتب في بعض المراجع عنه وعن تاريخه الذي يشبه الأساطير فقد نسب إليه كل فضيلة تتعلق بالخط والكتابة فبعض المراجع قال إن أجداد العرب من الأنباط لهم الفضل في تطوير الحروف (الهيروغليفية) المصرية القديمة إلى ما هي عليه وأن انتقال الحروف من الصور إلى الرموز المجردة التي تسمى الأبجدية يعتبر تقدما كبيرا .

على أن كل هذا لا يعدله في شيء من الفضل مهما طال الحديث عنه فلقد نالت العربية وحروفها الشرف العظيم بأن تحمل أعظم وأكمل وآخر الرسائل السماوية فقال جل وعلا " وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) (سورة الشعراء) وفيما يلي من وريقات بعضا من صفحات تاريخ هذا الفت الجميل الشريف .

وفق الله الجميع لكل خير .

يعد الخط العربي واحدا من أهم إنجازات الحضارة الإسلامية في مجال الفنون الجميلة التي قدمتها للبشرية، تجلت فيه عبقرية الفنان المسلم، واستطاع توظيفه في أبداع صورة على جدران المساجد والمدارس، وعلى المشكاوات والأواني النحاسية، والسجاد. وتشهد الآثار التي وصلت إلينا حاملة هذا الفن البديع على ما وصل إليه من رقي وإبداع.

وقد عني الأتراك العثمانيون -خاصة- بفن الخط العربي عناية عظيمة بعد أن انتقلت إليهم الخلافة الإسلامية، فنقدم على أيديهم، وبلغ درجات عالية من الجمال. وكان الخلفاء العثمانيون يحتفون بالخطاطين ويجزلون لهم العطاء ويوفرون لهم كل أسباب الإبداع، وحسبك أن تعلم أن خطاط السلطان كان يتقاضى ٤٠٠ جنيه عثمانى ذهباً كل شهر!

بل إن بعضاً من الخلفاء العثمانيين هوى الخط وبرع فيه، مثل السلطان محمد خان الثالث، والسلطان مصطفى خان الثاني، والسلطان أحمد خان الثالث الذي كان بارعاً فيه وبخاصة النسخ والتلث والجليل، وقد كتب عدة مصاحف بخط يده، أهدى منها مصحفين شريفين للروضة المطهرة، وتحفظ دار الكتب المصرية بمجموعتين من خطه.

وقدم الأتراك عدداً من أعظم الخطاطين من أمثال: يساري أفندي، ومصطفى راقم، وممتاز بك، والحافظ عثمان، وعبد الله زهدي، وعبد العزيز الرفاعي، وحامد الأمدي. وكتب هؤلاء وغيرهم من الخطاطين الأتراك عشرات المصاحف والآلاف الأدعية والسور القرآنية، التي تشهد على ما قدموه من خدمة جليلة لهذا الفن الجميل.

إلا أن حال الخط العربي مع العثمانيين تغير بعد سقوط الخلافة العثمانية على يد كمال أتاتورك؛ حيث أمر باستبدال الحرف اللاتيني بالحرف العربي في الكتابة التركية ليقطع صلة الأتراك بالثقافة العربية الإسلامية فأهمل بذلك الخط العربي وضعفت مكانة الخطاطين.

وفي الوقت الذي كان فيه الخط العربي يلقي حرباً في تركيا، كانت مصر تستقبل نهضة واسعة فيه على يد الملك فؤاد الأول ملك مصر، الذي كان محباً للفنون، وله أياد في إنشاء الجامعة الأهلية بمصر ودعم

مسيرتها، وإنشاء معهد الموسيقى العربية. وكان الملك فؤاد راغبا في أن يكتب له أحد كبار الخطاطين مصحفا، فاستقدم من تركيا الشيخ عبد العزيز الرفاعي سنة (١٣٤٠هـ=١٩٢١م) الذي كتب له المصحف في ٦ أشهر، وذهبه وزخرفته في ٨ أشهر، فجاء آية من الآيات في جمال الخط ودقة الزخرفة وبديع النقش.

أمر الملك فؤاد بفتح مدرسة خاصة لتعليم الخط العربي سنة (١٣٤١هـ=١٩٢٢م)، وكان من بين مدرسيها الشيخ عبد العزيز الرفاعي، وانتظم فيها مئات الطلاب، وقد تخرجت أول دفعة في المدرسة سنة (١٣٤٤هـ=١٩٢٥م)، وكان لهذه المدرسة الفضل في تخرج رواد فن الخط العربي في مصر في القرن العشرين، وفي مقدمتهم الخطاط النابه سيد إبراهيم.

.. البداية

في حي القلعة الشهير بالقاهرة ولد سيد إبراهيم في (ربيع الأول ١٣١٥هـ=أغسطس ١٨٩٧م)، وتفتحت عينه على الآثار الإسلامية التي يمتلئ بها الحي العريق، وتزخر بآيات الخط العربي جمالا وروعة، وتلقى تعليمه الأولي في أحد الكتاتيب التي كانت منتشرة آنذاك بأحياء القاهرة، وكانت عادة هذه الكتاتيب أن تعلم الصغار مبادئ القراءة والكتابة حتى يتمكنوا من قراءة القرآن وكتابته على ما كان يعرف بـ"الألواح"، وكانت من الإردواز أو الصفيح، وشاء الله أن يكون شيخ الكتاب الذي يتعلم فيه الطفل الصغير صاحب خط جميل ويشجع تلميذه على الكتابة الجميلة. وقد لاحظ الشيخ جمال خط تلميذه الصغير فتعهده بالرعاية والتشجيع.

بعد الكتاب التحق سيد إبراهيم بالقسم النظامي بالأزهر الشريف الذي كان يرأسه الشيخ محمد شاکر والد المحدث الكبير احمد شاکر والأديب العلامة محمود شاکر، وكان هذا القسم يعنى بتعليم الخط إلى جانب دراسة العلوم الشرعية واللغوية، فتقدم كثيرا في تعلم الخط، هذا إلى جانب أنه كان يمارس الكتابة حفرا على الرخام في محل لأخيه.

وشاءت الأقدار أن يمر الخطاط الشيخ مصطفى الغر الذي كان مدرسا بالأزهر، فرأى ما كان يكتبه سيد إبراهيم على الرخام، فأعجب به وتوقع له مستقبلا كبيرا في عالم الخط، وطلب منه أن يكف عن الحفر

على الرخام، وأهداه مَشَقَّ (نماذج) الخطاط التركي محمود جلال الدين،
وتعهده بالنصيحة والتدريب.

بدأت رحلة سيد إبراهيم مع الخط من خلال البيئة الغنية بالآثار
الإسلامية التي كان يعيش فيها، وكانت الخطوط التي تزين المساجد
والمباني الأثرية في حي القلعة أول درس يتلقاه في فن الخط، وتأثر
أيضا بصفة خاصة في بداية حياته الفنية بخط الثلث المكتوب على
"سبيل أم عباس"، الذي أبدعه الخطاط التركي عبد الله بك زهدي، وكان
الخدوي إسماعيل قد استقدمه إلى القاهرة، وعهد إليه بكتابة الخط على
سبيل أم عباس بحي الصليبية بالقاهرة، وجامع الرفاعي بحي القلعة.

وكان خط عبد الله بك زهدي في غاية الروعة وحسن الذوق، واعتاد
سيد إبراهيم أن يقف أمام خط زهدي بالساعات الطويلة مبهورا بجمال
فنه، محاولا تقليده. كما تأثر بالخط الفارسي المكتوب على جدران
مسجد محمد علي، وبخط محمد مؤنس الذي يعد مؤسس النهضة الكبيرة
في فن الخط العربي بمصر.

.. مبدعا

طارت شهرة سيد إبراهيم مبكرا، وعرف الناس فنه المبهر، وقدروا
موهبته حق قدرها، ونظر إليه على أنه واحد من أعظم المواهب التي
ظهرت في فن الخط، وتسابقت إليه المعاهد العلمية والفنية ليقوم
بتدريس فن الخط، فمارسه نحو ٥٠ عاما في مدرسة تحسين الخطوط
العربية بالقاهرة، وتخرجت على يديه أجيال متعاقبة من الطلاب
المصريين والعرب والمسلمين والأجانب، كما درس الخط في كلية دار
العلوم، وفي قسم الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية، وفي معهد
المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية.

إلا شهرته الكبرى جاءت عن طريق كتابته عناوين المجلات والصحف
المصرية والعربية، مثل: الهلال والمصور والبلاغ والإخوان المسلمين،
وكان يكتب لوحات ملونة لآيات القرآن الكريم توزع مع مجلة الإسلام،
وكانت يومئذ أوسع المجلات الإسلامية انتشارا.

وكانت خطوطه الجميلة تزين صدور الكتب العربية. وسيد إبراهيم من
أكثر الخطاطين الذين كتبوا عناوين الكتب لأقطاب رجال الأدب والفكر
في مصر والعالم العربي، وقد نوه بخطه العلامة الكبير محمود شاكر

في مقدمة تحقيقه لكتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام بقوله: "وأما خطاط أخي الأستاذ الشاعر سيد إبراهيم فقد وهب كتاب ابن سلام وفصوله ديباجة يتفرق فيها الجمال"، ووصفه الكاتب الكبير خالد محمد خالد في كتابه حياتي بأنه ملك الخط العربي غير منازع.

اشترك سيد إبراهيم في كتابة خطوط قصر الأمير محمد علي المطل على النيل بحي المنيل بالقاهرة، وكان هذا الأمير صاحب ذوق جميل ومن محبي الفنون العربية، وبني قصره الجميل على الطراز العربي، وحلاه بأجمل النقوش والزخارف الإسلامية. ولما أراد أن يزينه بالخطوط العربية استدعى الحاج أحمد الكامل بك رئيس الخطاطين بمدينة إستانبول للقيام بهذا الغرض، واختار معه سيد إبراهيم لإنجاز هذه المهمة، فاشترك مع الخطاط التركي في كتابة قاعدة السلاطين وبوابة القصر وبعض اللوحات الخطية، وكان سيد إبراهيم يعد اختياره مع الحاج أحمد الكامل للكتابة في القصر أعظم تكريم له في حياته.

وقد تعدت شهرته حدود مصر إلى غيرها من البلدان العربية والإسلامية، ففي إحدى زيارات الرئيس الراحل جمال عبد الناصر إلى الهند زار مسجد حاما، وأعلن تبرعه بالسجاد للمسجد، لكن المسلمين هناك طلبوا أن تكون هدية مصر لهم هي خط سيد إبراهيم بدلا من سجاد المسجد، ويعد ما خطه في المسجد هو أعظم آثار هذا الفنان الكبير، وخاصة سورة الجمعة التي كتبها كاملة في صحن المسجد.

تمتع سيد إبراهيم بثقافة واسعة وحب للتراث العربي، فقد نشأ في رحاب الأزهر واحتضنه أستاذه الشيخ كمال الدين القاوقجي حين وقف على ميوله الأدبية فشجعه على دراسة اللغة وحفظ عيون الشعر، ودله على أمهات كتب التراث العربي، ونمى موهبته الشعرية.

وبالإضافة إلى ذلك حضر سيد إبراهيم دروس الأدب للشيخ المرصفي بالجامع الأزهر، وندوات شيخ العروبة أحمد زكي باشا، صاحب الأيادي البيضاء في حفظ التراث العربي ونشره، وهو يعد رائد فن التحقيق في العالم العربي، وأول من أدخل علامات الترقيم إلى اللغة العربية.

وأغرم سيد إبراهيم بشعر المتتبي وأبي العلاء المعري، وكاد يحفظ شعرهما كله، وقد أشار إلى ذلك خالد محمد خالد فوصفه بأنه "الوصي على التراث الشعري لأبي العلاء المعري؛ فهو يحفظ شعره كله، ويجيد الاستشهاد به في لمحات مشرقة".

شارك سيد إبراهيم في الحياة الثقافية بتأسيس رابطة الأدب الحديث وجماعة أبوللو، وتحتفظ مجلة أبوللو بقصائد شعرية رقيقة لسيد إبراهيم، ومنها قصيدة عن هيكل عظمي وجدته عند الدكتور أحمد زكي أبو شادي فناجاه بقوله:

أخي أبصرت بالأمس * * صديقا لأبي شادي
فهيج كامن النفس * * وذكرني بأجدادي
وذكرني بما ألقاه * * بعد الموت من تلف
وزهدني بما في العيش * * من مجد ومن ترف
صديقا كان قبل اليوم * * معدودا من الإنس
وأض لهيكل يحفظ * * للأبحاث والدرس
تساوت عنده الساعا * * ت والأيام والحقب
الأعراب أم للهند * * أم للفرس ينتسب

وقد أورثته هذه الثقافة نظرات دقيقة في الخط العربي، فكان شديد الحرص على القواعد التقليدية له، ولم يجوز في التركيبات الخطية خاصة في كتابة آيات القرآن الكريم أن يطغي عامل الجمال على ترتيب قراءة الآية، وكان يرى أن الخطاط العظيم لا بد أن يكون متقفا ملما بقواعد اللغة العربية وتراث الأمة الإسلامية عالما بأئمة هذا الفن، ودعا الخطاطين إلى كثرة التأمل والاطلاع على النماذج الخطية الجميلة؛ لأن الخط لا يكتسب بمداومة الكتابة فقط بل بالتأمل في إنتاج الآخرين.

وكان يرى أن اللوحات التي تتخذ من الحروف العربية أساسا لتشكيلها ليست من فن الخط في شيء، وأنها بعيدة الصلة عنه، وهي لا تتعدى كونها إبداعات لا تتخطى نطاق فن الرسم، واعتبر أن الخط المستحدث لا علاقة بفن الخط، وإنما يلجأ إليه العاجزون عن كتابه الخط العربي وفق قواعده الصحيحة.

عاش سيد إبراهيم حياته موضع تقدير الناس والدولة، فكان عضواً في لجنة تيسير الكتابة العربية في الأربعينيات، وعضواً في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، وفي المجلس الأعلى للفنون والثقافة.

وظل موضع تقدير من محبيه وتلاميذه حتى توفي عن عمر يناهز السادسة والتسعين في (٢٨ من رجب ١٤١٤هـ = ٢١ من يناير ١٩٩٤م) وبعد وفاته قام مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية بتسمية المسابقة العالمية الخامسة للخط العربي بإستانبول باسمه، وهي التي تقام لتخليد أسماء عظماء فن الخط في التاريخ.

المراجع

- ❖ تاريخ الخط العربي وآداب
- ❖ ابن البواب عبقرى الخط العربى

ختاماً

لا يسعني إلا أن أتوقف هنا عن ذكر كل تفاصيل تاريخ هذا الفن وخاصة في العصور المتأخرة والحديثة حيث تشعب من هذا الفن الكثير من الفنون في الآنية والعمارة والمخطوطات والمساجد والأسلحة وغيرها حتى لقد برع بعضهم في كتابة القرآن كاملاً على بيضة وتفرد آخر بكتابة بالخط العربي على حبات الأرز وفي المقابل أكمل آخر كتابة أكبر مصحف وأصغر مصحف لا يرى إلا بأجهزة تكبير.. وبعد

هذا فن من فنوننا وصلنا بجماله حتى عصرنا الحالي فكل الرجاء من حاملي هذا الفن أن يلتفتوا للجيل الحالي حتى يتوارث جيلاً بعد جيل ليبقى صامداً رغم ما نشهده الآن من تنافس شديد مع الآلات الطابعة والحواسيب المقلدة لكل فن بكثير من البرود والقليل من الجمال. ولتبقى الأنامل الموهوبة مصدراً للإلهام وإنتاجها راحة لكل عين وليحفظها رب توعده بحفظ كتابه وهو خير الحافظين

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين